
30

كلمات

لقاسم بك امين

(طبع بمطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٠٨)



اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علوّ المنصب ولا شيئا من الاشياء التي يجري وراءها الناس عادة وانما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم . (المؤلف)

كلمات

لقاسم بك امين

(طبع بمطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٠٨ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

***

لا يغرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعرا

***

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

***

رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها

***

اذا استشارك عدوّك فاخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

***

في مصر كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً .

فاذا درس شيئاً من العلم صار عالماً مفضالاً فاذا امتاز ببعض الحذق او اظهاره عدّ من النوابغ

***

ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف . شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً اليه الى حد أنه يستحيل عليه ان يعيش بدونه

***

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أن يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسئلة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في

المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي كان ويكون بعدُ الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

***

لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته . اذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل الى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة . ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته فلا يقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبه . بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها . ويفرق بينها وبين أميالها . ويذهب همومها وأحزانها ولا يطمئن الا اذا قطعت العلاقات مع غيره وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه في يوم واحد وتفنى معه في ساعة واحدة لا تعرف ماضيها ولا تبالي بمستقبلها . فاذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها وشكرته على أسرها . واغتبطت برقيها . ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحاً وسعادة لم ترَ مثلها

العاشق عنده ما يكفيه سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب . ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح . تنتابه الحوادث ولا تترك به أثراً لانه لا يعبأ بها سارة أو ضارة . ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لانه يشعر بأن في جسمه روحين وفي صدره قلبين

***

ان كان في الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق

***

كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرها . وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما

***

ليس ما يكتب على ابواب الامكنة دائماً صحيحاً . فقد

يكون بين سكان البيمارستان من هو اعقل من هـذا الذي تراه سائراً في الطريق متمتعاً بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل ابوابها على نساء فيهن من هي أوفر حشمة وادباً واكثر بعداً عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتي تحني الرؤوس امامهن .

***

يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوباً واذا كان غير محبوب فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة السكر من تنبه في الاعصاب وسرعة في دورة الدم وانفعالات شديدة في النفس وبالاجمال من زيادة محسوسة في مبلغ الحياة كلاعب القمار يتمتع بارضاء شهوته في الربح وفي الخسارة

***

من اختباري لارباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي أن الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد في القلب — حمية الفاظ متى انتشرت عادت هباء لاتترك اثراً بعدها .

***

في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء اكثر من عنايته بابداء فكره

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر افكاره كما هي . ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأي أمر كان — هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شي يعادله ولا يبالي بذم الناس بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منبهاً لاعصابه منشطاً لقواه مغرياً له على الاستمرار والثبات .

***

كلما أردت أن اتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل

***

بعد سن الاربعين يبتدئ العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتي . وان الذوات الجميلة التي نحبها ونقدسها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد في الخارج الا مختلطة بنقيضاتها .

***

لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الادبية هي العفو عن الخطيئة — العفو عن اكبر خطيئة العفو عن كل خطيئة — .

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هي درجة مسئوليته؟ مسئلة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها. لكن حلها يكاد يكون محالاً اذ لايستطيع احد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها الادبي والمادي . والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لايصل الى تقديره عقلنا . وكل تاريخ الانسان في الماضي يدل على أنه ان لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له في شره واطماعه وشهواته . خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم . خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً موقتاً .

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لامحل للاستغراب منه . هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان. هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة

وذاقا ثمرتها التي يتخيل لى أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما وانتقلت منهما الى ذريتهما جيلاً بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً الى الفضيلة. العاجزة عن الحصول على اليسير منها الا بمقاساة أصعب المجهودات. حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه في المستقبل

واخيراً فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح المذنب فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هي عولجت

***

أمر لا تدري متى يغشاك لا يمنعك مانع من ان تستعد له قبل ان يفجأك

***

لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم

***

لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

***

يظهر أن باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما أقفل في التشريع فقد صار من المقرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء !

لكي يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب ان نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم . وهذا يناقضه قيام الدليل على ان جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقي العام وتابعة في أطوارها لسير الانسانية

فهي اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لاتزال تنتج وتبدع كما فعلت في الماضي . ولا أدري لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحياناً في لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب

نحن خلفاء العرب في لغتهم فكل ماتخترعه ملكاتنا في اللغة يعد عربياً بالطبع

***

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل مايقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية .

لى رأي في الإعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لاتتحرك باي عامل من العوامل . بهذه الطريقة وهي طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية أيضا يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هيه .

في اللغات الاخرى يقرأ الانسان ليفهم . أما في اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ فاذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) يمكنه أن يقرأها عَلَمٌ أو عِلْمٌ أو عُلِمَ أو عُلِّمَ أو عَلَّمَ أو عَلِمَ . ولا يستطيع أن يختار واحدة هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة فهي التي تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون

***

كان المؤلفون في القرون الوسطى هم ابن سينا وابن رشد وابن مسكويه واضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الادب والعلم والفلسفة لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ثم مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام واللغات الاوروبية أخذت تحول وترتقي كلما تقدم اهلها في الآداب والعلوم حتى اصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة — صارت انفس جوهرة في تاج التمدن الحديث .

رغماً عن هذا قد اجمع قومنا على ان لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الاول ويزعمون انها سيدة اللغات كما

اجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا

***

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن افكارهم في ما يكتبون وإنما عقولهم هي مخازن تحفظ مايدخل فيها بالقراءة والسماع ومستودعات لافكار غيرهم يتعاملون بهـذه البضاعة التي ليست لهم ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئاً من انفسهم. كل عملهم محصور في تكرار افكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الاطفال القرآن فاذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا !! آه فلان ما احلاه ! علان ليس في العالم مثله !

***

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة أي لكسب المال . اما حب الحقيقة والاستغراق في تحصيلها والشوق الى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس وبالاجمال التعلم للتعلم فلا فائدة فيه. والفائدة كل الفائدة في هذا الذي لا فائدة فيه

***

اذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين احداها والاخرى .

واذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الاول ولا تجد في الجريدة التي تقرأها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة او تعبيرًا جديدًا أو اسلوبًا مبتدعًا . لا تجد النابغة الذي يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه

***

يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة احسنها طريقة واحدة : هي التي يجدها الكاتب المجيد

***

عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود . وعلمه القليل لا يصل الى ادراك المجهول الذي لا نهاية له. لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار كالاعمى يتخبط يمينًا وشمالاً لا فرق في ذلك بين الغبيّ الجاهل والذكي العالم .

***

المقلد في ايمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في

عروة الملابس . والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم وابعض منهما من يخادع بدينه فيقول ان كان الله غير موجود ماخسرت اكثر من غيري.وان كان موجوداً ربحت مع الرابحين لذلك أومن به.هذا هو المحتال الذي لايصان احد حتى الإله من نصبه

***

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان في جميع ادوار حياته فتارة تخضع للاولى وتارة تتغلب عليها الثانية ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة كما لا يوجد رجل مهما احاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لان يأتي يوماً بافضل الاعمال.

وحقيقة الامر ان اخلاق الانسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة وليس لها حد تقف عنده انما هي في تحليل وتركيب.في تكوّن مستمر يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده الى التماسك

***

الانسان أسير الشهوات ما دام حياً وانما تختلف شهواته باختلاف سنه فشهوة اللعب عند الطفل وشهوة الحب عند الشاب .

وشهوة الطمع عند رجل الاربعين وشهوة السلطة عند شيخ الستين جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا . متى وقع فيها أحدنا يجب عليه أن لا يترك نفسه الى تصرفها ولا يستصعب الخلاص منها ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته . عليه أن يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها . عليه أن يحول فكره عن الامس الذي كان فيه قبيحاً وينظر الى غده الذي يكون فيه جميلا

لا يطلب الكمال من المرء وانما يطلب منه أن يكون في كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى

***

في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش الا عند الرجل الذي حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً كذلك الحال في جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذي عرض نفسه الى استهواء الشهوات وخدائع اللذات فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التي هي الفضيلة الحقيقية خلافاً للرجل

الذي احتجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها الا قليلا واذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها

***

بعد سن الاربعين كل زلة خطرة

***

عين الطماع حينما تبصر شيئاً تشتهيه لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقي. هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار

***

يوجد اناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود —

***

لاتكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه

***

زارني أشهر اديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية وكان في يدي كتاب فرنسوي يشتمل على حكم ومواعظ موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها « اني أخشى ما اتمنى » فقال كيف ذلك ؟ لا بد أن يكون في الطبع خطأ : قلت لا . قال فسر لي حينئذ كيف يخشى الانسان الشي الذي يتمناه فاجبته كل انسان يخشى ما يكره وليس كل انسان يخشى ما يتمنى وانما هذه صفة تختص بها ذوو النفوس الممتازة وتكون سبباً لشقائهم : يرى الواحد منهم وردة جميلة في البستان فيتمنى أن يقطفها ولكن يبعده عنها ماحولها من الشوك ، يشتهي تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التي ربما تصادف اسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها على الارض وهو يشتهيها . يلاقي المرأة التي كان يراها في مخيلته مثال الجمال فيود أن يلقي نفسه تحت اقدامها و يعطيها قلبه وحياته ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها — يتمنى صديقاً ويخشى ان يجده خائناً يتمنى . . . يتمنى كل شيء ويخشى أن لا يجد فيه كل ما تخيله وهكذا يقضي حياته بين الامل والخوف من تحققه

وتنتهي به الحال الى أن يرى أن السلامة في ترك الاماني

***

كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منها اظهار الحقيقة ولكنك لا تجد الا شخصاً يريد ان يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغى الى شيء مما تقوله لانه ليس مشتغلاً الا بما يقوله

***

وجدت السآمة غالباً في الاجتماعات وما شعرت بها في الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدني فيهم فافر منهم وأرجع ملتجئاً الى نفسي فاجد فيها الراحة والسكون

***

من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي ؟ أم الذي يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لاشك أن الاول هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب

***

من الناس من اذا اراد ان يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه فاذا رأى شهوداً وضع يده في جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء في يد صاحبه بعد ان يراها الحاضرون ولكيلا يبقي عندهم شكاً في مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة. فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ثم كلما اجتمع في نهاره بواحد من معارفه اوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل اراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى الى شكواه ويشاركه في ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوي عزيمته فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف ان يجرح احساساً شريفاً . يحتال في انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله فاذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع في ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف ان للنفس حياءً

يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غض النظر عنه
فعل الخير حسن وأحسن منه ستره

***

أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية في الاشياء والناس

***

في الامة الضعيفة المستعبدة حرف النفي (لا) قليل الاستعمال ..

***

من مروري في المدارس والمكاتب أحفظ تذكاراً ثابتاً لا يزول ابداً — وهو الخوف من الضرب — في الكتاب ضرب بالعصي على الارجل او الكتف أو الرأس أو أي مكان آخر من الجسم وفي المدارس بالتيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام — كنت أذهب الى محل التعليم مصحوباً باضطراب في العقل وخفقان في القلب وارتعاش في الجسم وبعكس ذلك أرى الآن الاطفال يذهبون الى المدارس راضين مسرورين —

نتيجة منع الضرب فيها ودخول الالعاب الرياضية

* * *

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر أحد ولو كان من ألد خصومه في الرأي أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

* * *

يظهر لي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي فاكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة أولئك هم

السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الاول مخاطرين بانفسهم يتنافسون فيما بينهم في مصادمة كل صعوبة. من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي اليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً

* * *

لعل أكبر الاسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال فاهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور

* * *

دخلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال في العالم فبعد أن تجولنا في غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلاً انا اكتفيت بما رأيت وها انا منتظركم هنا. وقال الثاني اتبعكما لاني أحب المشي وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي وسار معنا شاخصاً

امامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلي وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح (هذا الطف ما في هـذه الدار) وصلنا الى تمثال إلهة الجمـال الفريدة في العالم اجمع فسألت دليلنا ماذا تساوي هذه الصورة اذا عرضت للبيع فقال انها تساوي ثروة أغنى رجـل في العالم تساوي كل ما يملـكه الانسان تساوي ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمناً لها اذ لا حد لقيمتها

***

مهما كان الرأي في حكم الاتراك لمصر فلا ريب عندي أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيراً . وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن في الملبس والمأكل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الادبية

واذا كان التعليم قرب مابين الرجال من المسافـة فهي لاتزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى انك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر

ابتعادهم عن الثانية — واليوم وجد المصريون والاتراك امامهم انسانية ارقى اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً فاخذوا يقلدون الاوربيين في جميع شؤون حياتهم ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له اثر حميد في انقاذ امتنا من الحال التي هي فيه الآن

***

اذا رأيت الرأي العام يرمي احد رجال الحكومة بالخيانة ساخطاً عليه شديد الرغبة في سقوطه فاعلم انه غالباً رجل ظاهر وعامل نافع

واذا رأيت الرأي العام معادياً لكاتب واعد له خصوماً يتسابقون الى نقض افكاره وهدم مذهبه وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا في مطاعنهم الى السب والقذف فتحقق انه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق

ماهو الرأي العام ؟

أليس هو في كثير من الاحوال هذا الجمهور الابله عدو التغيير — خادم الباطل ومعين الظلم

لو انتظر المصلحون دائماً رضاء الرأي العام لما تغير العالم عما

كان عليه من زمن آدم وحواء

***

صنف الطعام الذي اعجبك او قطعة الغناء التي اطربتك أو ليلة الانس التي راقتك مع محبوبتك او غروب الشمس البديع الذي خفق لاجله قلبك اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع ان تجدد السرور الذي شعرت به لأول مرة فلا تحاول ان تنال ذلك في اعادته

***

قبيل الغروب وقف بنا وابور النيل الذي كان يحملنا بجانب غيط مزروع وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعباناً غليظاً قصيراً ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان)

أما الآخر فتقدم اليه حاملاً فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ثم تركه في مكانه وأخذ سلاحه وعاد الى عمله ولم يتكلم في اثناء ذلك بكلمة وحينئذ تحرك زميله ومشي محترساً على أطراف قدميه شاخصاً الى الحيوان واقترب منه بطيئاً بطيئاً ولما وصل اليه لمسه بطرف الفأس التي كانت في

يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق انه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه بالفأس طعنة قوية

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به الى الجسر وكان في هذه الساعة عامراً بالمارة فاستوقف الاطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلاً (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية يلقي الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الاطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعاً وهو في مقدمتهم حاملاً فريسته — أليس هو الحال دائماً في جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفع من رجال العمل عن حب الظهور وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها !

***

يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهل فعل السحر فيستولي على عقله فاذا روى عن كتاب قال لنفي كل شبهة هذا مدوّن في الكتب واذا نقل عن جريدة قال هذا مذكور في الجرنال

فاذا اعترضت عليه بان الخبر لا يحتمل الصدق وان الخطأ جائز على صاحب الكتاب او الجرنال اجابك نعم ولكن لابد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لان صناعته تقضي عليه بذلك

* * *

توجد كلمات الصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة فحيث تكون احداها تكون الاخرى حتى ملت طول العشرة كالعالم العلامة والحسيب النسيب والصديق الحميم والسيدة المصونة . فاما طلاق يرد اليها حرية الاقتران بكلمات اخرى واما على الاقل حيلولة موقتة تستريح في اثنائها من هذه الشركة القهرية

* * *

من اعظم ما يصاب به المرء ان يحرم من الذوق السليم .

الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطري الذي ينمو ويتهذب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه الى ان يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب مالا يناسبه

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا الذين هم على يقين من ان الذوق لم يخرج من مصر

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة او المبكية والعاقل يكتفي بما يراه حوله و يسمعه يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين

***

كان خمسة من أرباب المعاشات خمسة شيوخ مروا على فروع الادارة المصرية القديمة وتقلبوا في مناصبها العالية من مديرية الى مجلس الاحكام الى ديوان الاوقاف الى السكك الحديدية اختاروا بيت أحدهم أكبرهم رتبة وصاروا يجتمعون فيه من الصبح الى الظهر ومن العصر الى بعد الغروب جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل ولكنه واسع الارجاء تطاول أشجاره السماء هواؤه معطر بروائح الزهور لا يصل اليه شيء من ضوضاء الطريق ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ماذا كانوا يقولون و يفعلون ؟ كانوا يقضون الايام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع مكتفين به لسد فراغ حياتهم وفي بعض الاحيان يلعبون النرد فيتقدم منهم اثنان الى ميدان المبارزة و يلتف حولهما الباقون للفرجة واذ ذاك ترتفع أصواتهم

— شيش يك — بنج جهار — خانه — اضرب — و يتناقشون بحدة هذا يضحك لانه غالب والآخر يغضب لانه مغلوب فاذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمالهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور ويخرجون من أعماق حافظتهم الامينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الامن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة عن حدة الشهوات والتأثر سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحياناً على وجوههم. وهناك موضوع كان يتردد في غالب الاحيان في حديثهم هو تقدير سن كل واحد منهم متى طرقوه جرهم الى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط في الارقام والوقائع وعوج في الرأي واباء للحق ومغالطات ظاهرة

كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ومهما بلغ جهدهم في الفحص والاخذوالرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة وظل كل منهم حافظاً مركزه متمسكا بزعمه . وفي يوم حضروا كعادتهم الى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى الى بيت أحدهم واستمروا هم الاربعة على حالهم المعهودة ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو اليهم انفرادها وتدعوهم الى الانضمام اليها فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر وماتوا واحداً بعد الآخر في مدة قصيرة وبقى خامسهم الى الآن منفرداً كئيبا لايتكلم ولا يخرج من بيته لايدري ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذي يخلصه منها

***

أتعرف حسين بك ؟ — لا — ؟ رجل خفيف ولطيف لاتغيب البشاشة عن وجهه ولم يره احد قط غير متبسم . اذا قال لك نهارك سعيد ضحك واذا أخبرته ان الهواء

طيب ضحك واذا سمع ان زيداً مات ضحك زينة المجالس وانيس النوادي يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح حوله يستخدم كل شيء لتسلية نفسه واصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعاً للتنكيت وفي احسن الرجال محلاً للسخرية . لو ضحيت حياتك في اشرف الاعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء بها وجعلها اضحوكة للناس

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر الى مواضع العيوب في الانسان وجهات الضعف في الحوادث فيتبسم بسكون ولطف واذا علا صوته للضحك فليس لان الضحك غايته بل يعده وسيلة للفت النظر الى شيء يحزنه وامر يبكيه

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة لاستعداده الطبيعي . لا يحقر احساساً شريفاً ولا يصغر عملاً كبيراً وانما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بها اخف ما يمكن من الضرر في هذا الاسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين في اوروبا وعدوا من اعظم رجال الادب والفلسفة

أخبرني موظف في الازهر لايخفى عليه شيء من اسرار الطلبة انه كلما اراد واحد ممن فسدت اخلاقه منهم ان يسير وراء شهوته ذهب الى احد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر قدره خمسة قروش او مايقرب من ذلك. فاذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقداً انه بريء من كل ذنب.

***

سئل ح . بك — مارأيك في كتاب تحرير المرأة ؟ فاجاب رديء !!.. هل قرأته ؟ — لا — اما يجب ان تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟— ماقرأت ولااقرأ كتاباً يخالف رأيي.

***

اخلاق جديدة عند الشبان : علمت ان بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون انفسهم لخطبتهن وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن. فيرصدون فيها ماتملكه من الاطيان والاماكن وقيمة ماتساويه ومقدار ريعها وسن والدها والامراض التي يكون مصاباً بها؟

وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته الخ معلوماتٌ لا يفكر في جمعها اشد المرابين احتياطاً اذا اقرض مبلغاً جسيماً بدون تأمين

***

رأيت يوما في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم يظهر من هيئتها انها من عائلة كبيرة طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين في وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاماً . الجزء الاسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل والقسم الأعلى غير مستور وانما الملاءة مشبوكة في رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين . على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضاً من الوجه تحجب فاها وذقنها حجاباً لطيفاً شفافاً كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجاً كما تفعل الراقصة على المرسح وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان

واستسلام وبالاجمال كان مجموعها تحريضاً مهيجاً لحواسهم

***

كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم » كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها . كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزاً محبوباً .

***

لا فرق بين من يفشي سرًا أؤتمن عليه وبين من يختلس مالاً أودع عنده

***

المصريون الذين يفهمون ان للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع الموقت هم تابعون لقانون الحب والامانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم قانون أعلى من مبادئ حب الذات الذي وضعها بعض فقهائهم .

***

ما دام الطلاق متروكاً الى رأي الزوج يستحيل أن يثبت في نفوس الرجال والنساء ان أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة الى آخر الحياة

***

الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يوماً أو شهراً أو سنة أو عدة سنين حيازة تنتهي بمجرد ارادة الرجل ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته الى الباب ويقول لها أخرجي

***

السآمة علامة النفس الشريفة

***

يولد الانسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً . الولد الصغير لا يعرف الا نفسه ولا يرى الا نفسه ولا يحب الا نفسه ولا يألم الا من نفسه وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل الى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها يحسن ظاهره ويستر باطنه. أعظم ما تنتجه التربية الجيدة

اذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

***

من ذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الاحساس الوطني ؟ عاش اباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة وخدموا أمتهم وفتحوا البلاد وحاربوا الامم ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة أما الآن فأينما قرأت وفي أي مكان وجدت لا أسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفاني في خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشتغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقا حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً .

***

أردنا أن نحصي تقلبات أحد معارفنا في آرائه العمومية

فوجدنا انه كان عرابياً فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم الى اعدائه وصار اكثرهم سفاهة في الطعن عليه وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدوباره كان يتودد الى أحد أصحاب الجرائد ويمده بافكاره واخباره ثم قطع كل علاقة به وتحول الى أشد خصومه وأخيراً اشترك في تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب اليه بالدعاء والصلاة

***

اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب ولا شيء من الاشياء التي يجري وراءها الناس عادة وانما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم.

***

الكاتب الحقيقي يجتنب استعمال المترادفات فلا يأتي باسمين مختلفين لمعنى واحد في مكان واحد لان ذلك يكون حشواً في الكلام مستهجنا ودليلا على فقر في الفكر والخيال ولكن اذا كان المقال يستدعي ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن وقد يكون مطلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التي بينها . كذلك الكاتب المجيد لايضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال ان يميزه بصفة مطابقة للواقع على ان الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعوّلون في الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ماخفي من اعصابه وسبر غور احشائه والتسمع على نفسه لادراك مايدب فيها من النزعات والخواطر والاميال والحركات ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارىء أو السامع صورة كاملة وشعورًا تامًا وأثرًا باقيًا

ما رأيت جنازة مسلم الا أخجلني منظرها . هذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولها الاطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الارض . وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت — وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً وليس فيهم الا الاعمى والاعرج والاعور ويمشون بسرعة غير منتظمة لابسين ثياباً قذرة صائحين بأصوات مزعجة . كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة — وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين وتارة الى جهة الشمال وأحياناً يطير في السماء ان كان من الاولياء المقربين !

وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن وعفرن بالتراب رؤوسهن يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة — ما هذا كله ؟ أجمع مجانين أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال

في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك ولا

ينقصها الا أمر واحد وضعت لاجله هو اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون

***

لما كنت في الاستانة توفي في الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقاً لبيتنا فلم نسمع عويلاً ولم نشعر بحركة غير اعتيادية وفي الضحى خرج النعش ونقل الميت الى القرافة مشيعاً بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة على النبي بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رؤوسهم فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت الى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم

***

دعينا للعشاء عند م . باشا وكنا ستة أو سبعة من الاصحاب مسرورين باجتماعنا مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف وبينما نحن متجهون الى قاعة الطعام اذ دخل علينا زائر من المشايخ فاضطر صاحب المنزل الى أن يدعوه الى الاكل معنا فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان وكان أول الجالسين .

جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برماً محكماً فانكشف الساعد الى المرفق فتمثل لي جالساً في مكان من الميضاء يستعد للوضوء . اشتغل بالاكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه على ملابسه وكان يلقي العظام على مفرش المائدة فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الاكل فيقذفها من فيه بقوة يميناً وشمالاً

وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا — آه يا عيني — وقام واضعاً يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت في عينه فتأملنا فلم نجد فيها أثراً فضحك وقال انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر

***

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال وفكروا في

وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء مؤملين أن يجدوا الاصلاح الكبير

مثلهم كما كن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير اثاث البيت ورتبه على غير الشكل الاول — تعب ضائع

***

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن انه يمكنها أن تأتي بنفسها كل ما تراني أعمله فاذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الارض لأ قبلها تقول لي أنا أيضاً أرفعك وتمسكني بيديها من أفخاذي وتجهد نفسها حتى يختنق وجهها لتحملني كما حملتها

واذا رأت أن رجلاً عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل — كذلك الرجل الجاهل يخيل له أنه كف لا صعب الاعمال ومستحق لأعظم المناصب ومساوٍ لأرقى الرجال . يظن انه منح استعداداً فطرياً يجعله قديراً على كل شيء . يظن انه يطيق كل ما يريد

***

كنت في ليلة فرح وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رأيت من نوعها . أنفق فيها الذهب بلا حساب — وعند الساعة العاشرة دخل العروس وصدحت الموسيقى اعلاناً بذلك فقلت لصديق كان جالساً بجانبي : هذا اعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين كان من حسن الذوق أن يبقى مستوراً . وما أحسن ما اعتاده الغربيون فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوّين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد ويغيبان عدة أسابيع فوافقني صديقي على ذلك ثم قال : أتريد أن أقصّ عليك لهذه المناسبة شيئاً رأيته بعيني قلت نعم فقال

كان سني لا يتجاوز تسع سنين ولا تزال صورة الواقعة التي سأقصها الآن محفوظة في ذاكرتي كما لو كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئاً فشيئاً لحفلة كبيرة نصبوا من أجلها سرادقاً واسعاً ووضعوا فيه الكراسي المذهبة وعلقوا البيارق والنجف وكل يوم يمر يزيد في رونق الزينة وترتيبها فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع وصدحت

نغمات الموسيقى وتقاطرت وفود الرجال والنساء الى البيت يدخلون فيه أفواجاً فيجلس الرجال في الصيوان وتختفي النساء في بيت الحريم الذي كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه . ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلاً من كل سن كنا أول المتفرجين واكثرهم تمتعاً فرحين بهذه المناظر البرّاقة والأنوار الزاهية والاضواء المنتشرة نجلس ونقوم ونجري ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الاصوات وضياء الأنوار

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة دخل الى البيت ودخل وراءه بعض الاولاد وكنت من بينهم فرأيته سلم المنزل وفسحة الدور الاول مملوءة بالنساء وهنّ يتزاحمن للوصول الى الصف الاول ليشاهدن العروس داخلاً . وكان أحد أقاربه ماشياً أمامه فصار يدفعهنّ بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل الى غرفة عروسه فأدخل فيها وأقفل الباب عليه وحينئذ وقف النسوة أمام الباب كأنهنّ يترقبن حادثاً كبيراً وهذا لم يمنعهنّ من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير

منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ومن حين الى حين تنادي احداهنّ (هس يا ستات) وتستمر هي في الكلام اكثر من غيرها. ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدري. ثم سمعت صياحاً متكرراً أتى من داخل الغرفة فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء وما زال يتضاعف حتى أدى بهن الى الدق على الباب وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عاري الرأس بارق العينين محتقن الوجه وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاماً شديداً مصحوباً باشارات الغضب ومن وقت لآخر كان يقول ماذا أصنع. لا أقدر.. وبعد مداولة صغيرة رجع ودخل وراءه المرأتان وتبعه الجيش الذي كان واقفاً وراء الباب مدفوعاً كالسيل وقدجريت معهم حتى صرت قريباً من السرير فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت وقبضت احداهما على ذراعيها والاخرى على فخذيها فزاد صياح البنت وبكاؤها وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء رأيتها بعد ذلك ملوّثة بالدم فخرجت هارباً من هذا المنظر الشنيع لا أشك أنهم ذبحوها

***

في عهد الاستبداد في الوقت الذي كانت فيه كلمة من محمد علي أو اسماعيل تكفي لاعدام من يغضب عليه أو ارساله الى البحر الابيض في تلك الايام السوداء التي كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ولم يكن لأحد مهما كان مقامه في الوجود ضمانة تحميه في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم — من ينظر نظراً سطحياً يظن اننا بلغنا من استقلال الرأي مبلغاً لا ينافسنا فيه أحد حيث لا يجد من الامة أدنى أثر للخوف من الحكومة بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاماً وانه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم اللهم الا اذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة

ولكنه اذا حقق النظر لا يلبث ان يرى ان حرية الانتقاد

لم تستعمل الى الآن في أعمال الحكومة الا لان هـذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم

أما المسائل الاخرى الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالاحوال الشخصية والعادات والاخلاق فلم يتجه فكر الباحثين الى انتقادها فهل لم ير أحد منهم فيها عيباً ينتقد؟ كلا وانما هم يرون العيوب ولا يجرأون على اظهارها

***

قال أحد أعيان الاقاليم في هذه الايام التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده أحد من الامراء والذوات وكبار الموظفين والاغنياء المقيمين في العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزأ من مغارمها يجب على عمد القرى وأعيانها ان ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم يسمونها جمعية منكوبي المشروعات الخيرية

***

كلما قدرت على ان أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدواً جديداً

***

أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل

***

أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليه لذتها و ينغص عليه شهوتها

***

ليس في مصر عالم محيط بجميع العلم الانساني وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص في العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون — والحقيقة المجردة عن الاوهام والاغراض ان كل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الاجنبي وعلى رغم أهلها

***

زارني أحد أصحابي وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم في هذه السنة دروسه وطلب مني ان أتوسط له ليحصل على وظيفة فمددت يدي الى هـذا الشاب مسروراً فوضع فيها يداً فاترة وسحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن ان يجلس على « الكنبا » التي أردت ان أخص قريبه بها وقبل ان يجلس شمر بنطلونه بعد ان تحقق من انتظام ثناياه ثم قعد ووضع رجلاً على الاخرى . سألته عن الوظيفة التي يرغبها فعلمت انه يريد ان يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهاً في الشهر فافهمته انه يطلب المحال وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب فلم يقتنع وأخذ يقيم الادلة على ان الحكومة اذا شاءت يمكنها ان تعينه بطريقة استثنائية فقلت له ولكن ما هي المسوغات التي تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب ان تتمتع به فقال كفاءتي فقطعت عليه الكلام وكررت له ان طلبه غير مقبول فحول وجهه عني وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت اليّ وقال « ممنون نهارك سعيد » وخرج وتبعه قريبه بعد ان اعتذر لي بكلمتين فلما خرجا سرح فكري فيما سمعت

ورأيت وتأملت في حال هـذا الشاب ووردت على خاطري أحوال أخرى وقعت من أمثاله معي ومع غـيري أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عنـد الكثير من شباننا تجعلهم صنفاً خاصاً لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضي التي عاشرت كثيراً من أفرادها ولا الشبيبة التي عرفتها في البلاد الغربية واختلطت بها زمنا — هذه الواقعة حركت في نفسي حياتي الماضية ومثلت في ذاكرتي صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عمـا يتحصله الشاب في هـذه الايام وانما الفرق هو ان الشيء القليل الذي يتعلمه الشاب في هذا الزمن يتورم في مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل انه يحمل كنوز السماوات والارض

***

العقل والجنون شيئان متضادان ولـكن حدودهما متجاوزة مختلطة. وفي الحقيقة لا يعرف أحد أين ينتهي العقل وأنى يبتدئ الجنون . ان كان التوازن بين قوى النفس هو علاقة العقل . فالنبوغ في المدارك والخيال يكون غالباً نتيجة اختلال في هذا التوازن

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال بشذوذ في الاخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية أو افراط معيب في تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ في الحواس عن القوانين الطبيعية أو باي أمر آخر يكون عنده مخالفاً أو زائداً عما تشاهد عند متوسطي الحال في الذكاء والاحساس

ربما كان الابداع في الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الاعصاب والجهد في توليد المعاني من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذي يجعل النابغة انساناً غريباً زائداً من جهة وناقصاً من جهة أخرى

بهذا قضت القدرة البصيرة اذ وضعت ميزانيتها على أتم قواعد الإقتصاد فاذا جاوزت الحد المقرر في منح قوة عوضته بالتضييق والتقتير في قوة أخرى

***

معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر

***

العقل والادراك والنفس ألفاظ لا تدل على أشياء حقيقية بل وضعت للملكات كان يتوهم وجودها بالذات في زمن كان العلم فيه قاصرًا يستمد مادته من الخيال ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعاني الى الفهم

والحقيقة ان البحث العلمي لم يجد في الحياة الفسيولوجية الا خلايا متنوعة قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا أخرى

***

اذا قدّم البخت انسانًا من غير معنى انسانًا لا ينفع ولا يضر . لا يفكر ولا يعمل يدور مع الحوادث دائمًا ولا يديرها يومًا انسانًا لا طعم ولا لون له تحمله الناس ورضوا عنه وانما يتحمسون بالبغض والعداوة اذا صادف البخت انسانًا مستحقًا لم ذلك ؟ لأن الاول منهم وقريبهم يعرف لسانهم وطرق معاملاتهم فيحصل لهم أنس بوجوده واطمئنان على آمالهم ومطامعهم أما الثاني فهو أجنبي عنهم لا يجمعه بهم شبه في الخلق ولا في الفعل فيحصل لهم وحشة بوجوده ويشعرون بأنه حائل بينهم وبين أغراضهم

أجمل الفعال تتغير وتفقد قيمتها اذا وقعت على شكل غير مستحسن . يكره الرجل الفاضل ولا تثمر أفكاره مهما بلغت من العلم والحكمة اذا خاطب الناس مظهراً الاعجاب بنفسه والثقة في عصمته من الخطأ . ويبغض الصديق المخلص اذا خالف الذوق السليم وحسن التربية في حديثه ومعاملته مع من يحبهم . ويضيع عمل المحسن اذا اقتصر على بذل ماله ولم ينفق معه شيئاً من قلبه فان الناس لا يسألون كم أعطى وانما يسألون كيف أعطى . وفي الحقيقة ان طريقة العطاء هي في الغالب أحسن مما يعطى

***

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي :

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقا ودهشة عصبية بادية في الايدي وفي الاصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات

متقطعة وهيئة بائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة

ولكن هـذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل انسان

أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر

هذا الاحساس الجديد ـ هذا المولود الحديث الذي خرج من احشاء الامة من دمها وأعصابها هو الامل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة . هو الشعاع الذي يرسـل حرارته الى قـلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل

***

أكثر النـاس لا يفهمون من الحب الا انه تمتع يشبه أكلة لذيذة اذا حضرت أكلوها هنيئاً واذا غابت استعاضوها بغيرها . والحقيقة انه احساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج

العليل الى الشمس والغريق الى الهواء. نار تلهب القلب لا يطفيها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا . ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الاخص في الاكل وفي النوم وفي الشغل . ويجعله غير صالح لشيء سوى انه يقضي أوقاته شاخصاً الى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها واشاراتها وكلماتها. نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل انه ماش في طريق مغروس بالورود أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق فوق قريب السماء . في هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من أكبر ملوك الارض فاذا انقضت عاد الى ما كان فيه من العذاب والالم

***

كل مذهب جديد يكره من أجل الحقيقة التي يحتوي عليها . ومع ذلك فانه لا يعيش الا بهذه الحقيقة

***

كلما أراد الانسان ان يعبر عن احساس حقيقي رأى بعد

طول الجهد وكثرة الكلام انه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ووجد ان أحسن مافي نفسه بقي فيها مختفياً

لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره في صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ألفاظ غير العتيقة البالية. يلزم اختراع ألفاظ جديدة

***

أول الحب هزل في الغالب وآخره جد

فاذا كانت علاقات الحبيبين ترمي الى اختلاط الارواح وتعانق النفوس واختيار الرفيق الوحيد كانت هذه الغاية الشريفة دليلاً على رقي الاخلاق وعلو الشعور ومنبعاً مستمراً ينفجر منه الخير لهما ويفيض على الناس. لم ذلك ؟ لان العشق هو الاخلاص وبذل النفس للغير وذلك هو كل ما تبتغيه التربية الادبية

***

قلما توجد حقيقة لا يختلط بها بعض الخطأ . وقلما يوجد خطأ لا يختلط به بعض الحقيقة . لذلك يجمل بنا ان نسمع كل قول

أكبر سرور السرور الوحيد الذي يخفف عن الانسان حمل الحياة ويرغبه في نقلها وينسيه الزمن والساعة ويجعله يتمنى ان يحكم عليهما بالوقوف هو ان يوجد في بيت صديق عزيز ويجلس على كرسي يستريح فيه محاطاً باشياء اعتاد ان يراها بنظره ويلمسها بيده وفي هذا الجو الذي يشرح صدره ويسكن أعصابه يقضي زمناً من الليل في احراق سجائر وهو ينظر الى الدخان الذي يتصاعد منها الى السقف يتحدث مع أشخاص يحبهم فيخاطبهم ويسمعهم بلا تكلف ولا تحضير ولا حساب يفتح قلبه ويفرج عن احساساته المحبوسة ويترك زمام عقله فيسير على هواه يمشي ويرمح وينط فرحاً بحريته في اختلاط الافكار وائتلاف القلوب يجد على هذا الشكل لذة مسكرة لا شبيه لها

***

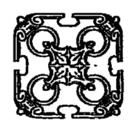
أسهل الطرق للتقدم وأكثرها استعمالاً هو أن يترقب المترشح عربة تجر رجلاً يشغل مركزاً عظيماً ويرمح وراءها ويتعلق في عجلتيها الخلفيتين ولا يتركها مهما سب أو ضرب بالكرباج حتى يصل الى المحل المقصود

***

تجري أمور الدنيا كأن القدرة الالهية لا تلاحظها أو كأنها تحابي الجبناء وتبارك في أعمالهم وأعمارهم وأموالهم وذريتهم

***

النفس الضعيفة تحني للقوي وتنكمش أمام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة وبعكسها النفس القوية تجد في اظهار جرأتها على هؤلاء وأمثالهم منفذاً يخرج منه ما يزيد عندها من القوّة عن حاجة حياتها






Bibliotheca Alexandrina
0406120